المبحث الثاني

تبادل الضمائر :

ان البحث في تبادل الضمائر يعد من المجالات المهمة في الدراسة الأسلوبية بوصفه ((ظاهرة اسلوبية تتميز بطاقاتها الايحائية في اداء المعاني وشحن التراكيب بدلالات إضافية)) [١]. مما يساعد على الكشف عن الطاقات التعبيرية الهائلة الكامنة في النص . والبحث في التبادل الضمائري يتطلب ادراك الازدواجية التي تربط بين الضمير بوصفه وحدة لسانية والمرجعية التي يحيل اليها ذلك الضمير وتنظيم عملية تبادل الضمائر الذي يتم من خلاله تحديد مرجعية الضمير يتم بصورة فوضوية . اذ انه ((يقدم للنص تحولات بالغة الغنى في المستوى التركيبي ... وبذلك يكون احد المصادر الكبرى للتنويعات الأسلوبية))[٢] .والتبادل الضمائري يعد إجراءً اسلوبيا اساسه النقله المفاجئة من نسق كلامي الى نسق آخر يتم عن طريق تحول مرجعية الضمير او بالتعبير عن هذه المرجعية بطرق مختلفة او بتغير نسق الكلام و تنويعه تناوبا بين (التكلم والخطاب والغيبة) ولهذا اصبح مقررا لدى نقاد الادب وعلماء الالسنية المعاصرين ، ان الضمائر ... لا تستعمل دائما لما وضعت له في اصولها اللغوية [٣] . وهذا الأجراء الاسلوبي الذي قد يتم من خلاله كسر افق التوقع لدى المتلقي بمفاجئته بنسق آخر لم يكن متوقعا ((يخلق لديه امكانية الانفعال بالنص وهذا الانفعال كفيل بخلق الحس الجمالي لدى القارئ ، وهذا الحس الجمالي هو نتاج التاثير الذي يمارس القارئ ، ولذلك يستطيع اللامتوقع ان يشكل لذة التقبل لدى القارى وهي لذة تقوده الى ملازمة

([١]) اسلوبية الحوار في القرآن الكريم : ١٤٨ .

([٢]) تبادل الضمائر وطاقته التعبيرية ، محمد نديم خشفة ، مجلة البيان ، العدد ٢٩٢ ، سنة ١٩٩٠:٦.

([٣]) المصدر نفسه : ٦ .

النص و معايشته ومحاولة استبطانه بشكل موح ومؤثر))[١] . واذا كانت ((وضيفة اللغة هي الإيصال ، أي نقل فكرة من متكلم الى سامع))[٢] فان الضمائر تعد ((روابط الوصل ... وهي تضطلع بدور راجح في الايصال الادبي باعتبار انها تجعل المرجع تناوبا بين الكاتب او القارئ ، و الشخص ... لكن هذه الضمائر ليست روابط الوصل الوحيدة)) [٣] لكن دورها اساسي في عملية الايصال . و بناءً على ذلك يكون التبادل الضمائري مجالا مهما في الدراسة الاسلوبية و((تطبيقا أمنيا يخضع لآلية السياق الأسلوبي))[٤] ، وذلك بانماط من التبادل بين الضمائر.

---

(١) جماليات الاسلوب و التلقي ، دراسة تطبيقية : ٨٩ .

(٢) الاسلوب والاسلوبية ، بيرجيرو :٦٣ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٦٥ .

(٤) سورة الكهف ، دراسة اسلوبية : ١٠٤ .

أولا : التبادل الانتقالي :

وهذا النوع من التبادل الضمائري كانت له الاسبقية على التبادلات الأخرى ، كونه الأكثر شيوعا في سورة يس ، يضاف الى ذلك ان هذا التبادل ((يمثل الدرجة القصوى في تبادل الضمائر ، فهو يحقق نقلة موقعية ، ليست على الصعيد اللساني حسب ، بل على صعيد مرجعيته أيضا ، من خلال الانتقال من مرجع الى آخر))[1] ويتم ذلك تناوبا بين الصيغ الثلاث (التكلم . الخطاب . الغيبة) مما يؤدي الى تحريك النص و زيادة فاعليته و تاثيره في المتلقي . ومن امثلة هذا النوع من التبادل ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [2] فالتبادل الضمائري في هذه الآيات الكريمة هو تبادل انتقالي حاصل على الصعيدين أي انتقال من ضمير الى آخر كل ضمير له مرجعية مختلفة عما يعود اليه ضمير آخر . وهذه الضمائر موزعة بين الصيغ الثلاثة (الخطاب . الغيبة .التكلم) . تبدأ هذه الآيات بـ (لام التعليل تعليلا لانزال القرآن)[3] ولتعيين السبب الذي من اجله بعث المصطفى ﷺ وأوحى اليه القرآن الحكيم ، ألا وهو انذار قومه [4] ، الذين لم ينذر آباؤهم أولم ياتهم نذير[5] . من ثم ياتي تصوير هذه الفئات التي لم يجد نور الحق ولا صوته اليها طريقا فلا فرق بعد ذلك بين ان

---

(1) شعر محمود حسن اسماعيل ، دراسة اسلوبية : ١٠٣.

(2) سورة يس ، الآيات: ٦ – ١١ .

(3) التحرير و التنور : ٣٤٧/٢٢ .

(4) تأملات في سورة يس قلب القرآن :١٧ .

(5) ينظر : ارشاد العقل السليم : ٢٤٨/٤ ، الجامع لاحكام القرآن :٦/١٥ .

ينذرهم المصطفى ﷺ او يكف عن انذارهم لانه لا فائدة ترجى منهم مطلقا ، انما ترجى الفائدة من الذين اتبعوا الذكر و خشوا الرحمن بالغيب و آمنوا بالبعث بعد الموت ، فلهؤلاء مغفرة و أجر كريم . أما المنكرون للبعث فلهم عذاب شديد [١] . فالتبادل الانتقالي الحاصل في هذه الايات يتناسب مع الدلالات العامة التي توجد فيها . فضمير المخاطب مرجعيته الى الرسول الكريم ﷺ بوصفه مبلغا منذرا ، في الفعل (تنذر) – ثم يتم الانتقال الضمائري عن طريق ضمير الغيبة (هم) العائد على القوم المقصودين بالإنذار ، ويلاحظ انتشار هذا الضمير بشكل كبير في هذا السياق لكن ثمة ضمير آخر هو ضمير التكلم (نا) الذي يحيل الى الله عز وجل اذ يتخلل هذا النسق الذي يتراكم فيه ضمير (الغيبة) محدثا تكسرا بوصفه إجراء اسلوبي في هذا النسق ، ويعود ضمير الخطاب ثانية في الفعل (انذرتهم) الذي يحيل الى الرسول الكريم ﷺ ، ليشكل شبه إطار لهذا النسق ، وان ضمير الغيبة (هم) الذي يعم النسق و المحيل الى الفئة التي تنتفع بالانذار قد جسد الغياب فهو مؤشر أسلوبي يتلائم مع الدلالات التي تحملها الآيات ، اذ هنالك غياباً لعقول هؤلاء بعدم انتفاعهم بهذا الانذار ، لان الله تعالى ((قضى في امرهم وحق قدر الله على اكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم ، انه محال بينهم وبين الهدى بالحواجز و السدود ، غائبة ابصارهم)) [٢] في حنين نجد ان ضمير المتكلم (نا) في(انا جعلنا ، وجعلنا ، اغشيناهم) التي تحيل كلها الى الذات العليا تتجلى من خلال هذا الضمير القدرة العظيمة (فالجعل هنا وهو ما خلق في نفوسهم من خلق التكبر و المكابرة)[٣] وان اكثر هؤلاء المنذرين ميؤوس منهم ومما يعزز هذا المعنى استخدام

---

(١) تأملات في سورة يس قلب القرآن : ١٣ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن :١٢/٧.

(٣) التحرير و التنوير : ٣٥٠/٢٢.

همزة التسوية مع (ام) لبيان (استواء الإنذار وعدمه بالنسبة لهم)[١] نتيجة لذلك الجعل . فالتبادل الانتقالي للضمائر يسوغه التناسب مع مضمون الآيات ودلالاتها ومن الممكن توضيح مسار هذا التبادل الانتقالي بالخطاطة آلاتية :

خطاب (لتنذر) غيبة- تكلم -غيبة- تكلم- غيبة- تكلم- غيبة- خطاب (أنذرتهم) - سياق - إجراء اسلوبي- رجوع للسياق [٢]

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [٣] نجد ان التبادل الانتقالي حاصل بين ضميري (الخطاب والغيبة) فضمير الخطاب في (تنذر ، فبشره) يحيل إلى الرسول ﷺ وضمير الغيبة في (اتبع ، خشي ، فبشره) يحيل الى أولئك المؤمنين ، وهم ((المتبعون للذكر : وهو القرآن او الوعظ ، الخاشون ربهم))[٤] فالنقلة حاصلة على صعيدي الضمير و المرجعية ، وقد جاء هذا التبادل الانتقالي للضمائر تماشيا مع السياق ((ولما دل السياق على من انتفع بالإنذار ، تشوق السامع الى معرفة جزائه ، فقال مفردا للضمير على النسق الماضي في مراعاة لفظ (من) دلالة على قلة هذا الصنف من الناس))[٥] الذين يخشون ربهم مع علمهم برحمته لان رحمته لا تقتضي خشيته [٦] . كما ان ضمير الغيبة المحيل الى هذه الفئة من المؤمنين ينسجم مع ايمانهم بالغيب . و يمكن توضيح هذا التبادل الانتقالي بالخطاطة آلاتية:

---

(١) المصدر نفسه : ٣٥٢/٢٢ .

(٢) ينظر:معايير تحليل الاسلوب ، ميكائيل ريفاتير ، ترجمة ، حميد لحمداني : ٥٩ .

(٣) سورة يس، الاية : ١١ .

(٤) الكشاف :٦/٤ .

(٥) نظم الدرر : ١٠٠/١٦ .

(٦) ينظر : التحرير و التنوير : ٣٥٤/٢٢ .

خطاب (تنذر) – غيبة(اتباع،خشي) – خطاب (فبشره) – غيبة الهاء في (بشره) .

ومن أمثلة التبادل الانتقالي الاخرى التي تستوقفنا في سورة يس ما نجده في الايات التي تحمل ((الادلة و البراهين على القدرة و الوحدانية ، في احياء الارض الميتة بـــاخراج الزروع و الثمار فيها ، وتعاقب الليل و النهار للرد على شبهات المشركين حول البعث بالادلة القاطعة و البراهين الساطعة))[1] يقــول تعــالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ، وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [2] فالتبادل الانتقالي حاصل بـــين (الغيبة والتكلم) فضمير الغيبة يحيل الى الارض (احييناها ، أخرجنا منها،...) وتـــارة يحيل الى الحب المخرج منها (فمنه يأكلون) وأخرى يحيل الى هؤلاء المنكرون للبعـــث (وآية لهم ، أيديهم ، أنفسهم ، هم مظلمون) كما يحيل ضمير الغيبة الى الليل (نسلخ منه) أما ضمير التكلم (نا) في (احييناها،اخرجنا،جعلنا،فجرنا) يضاف الى ضمير تكلم آخـــر هو (نحن) في (نسلخ) فانهما يحيلان الى الله سبحانه وتعالى و يبرزان القدرة العظيمـــة والعجيبة له عز وجل المتمثلة بهذه الادلة و الايات للرد على منكري البعـــث. فـــالكلام صادر من الله سبحانه وتعالى ، وهؤلاء هم الموجه اليهم هذا الكلام وبذلك يكون لـــدينا (مرسل ومتلقٍ) في سياق (رسالة) باستخدام صيغتي التكلم و الغيبة ، لكن هذه الغيبـــة غيبة ضمائرية وحسب ، فكون هؤلاء هم من وجه اليهم هذا الكلام أي (المتلقي) فهـــو دليل على حضورهم . ومن امثلة التبادل الانتقالي في سورة يس ما نجده في قوله تعالى

([1]) تفسير القرآن العظيم ، ٥٧٠/٣ ، ينظر: صفوة التفاسير : ١٣/٣ .

([2]) سورة يس :٣٣-٣٧ .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [1] في الاية الكريمة تسلية للرسول ﷺ ونهي عن الحزن لان الله تعالى اعلم بما يسره الكافرون من القول او العداوة له ﷺ وما يعلنون من الكفر والأفعال القبيحة فيجازيهم بذلك [2]. فالتبادل الانتقالي حاصل بين (الخطاب،الغيبة،التكلم) وكل ضمير من هذه الضمائر له مرجعية معينة . فضمير الخطاب في (يحزنك) يحيل الى الرسول ﷺ ، و ضمير الغيبة(هم) في (قولهم) يحيل جماعة الكفار والمكذبين للرسول ﷺ في حين ان ضمير التكلم (نا) في (انا نعلم) يحيل الى الذات العلية ، الله سبحانه وتعالى . ثم يعود ضمير الغيبة المحيل الى الكفار للبروز في (يسرون،يعلنون) ، فالابتداء بالخطاب موجه الى الرسول ﷺ ثم الانتقال الى الغيبة في (قولهم) ((بإضافة اسم الجنس الى الضمير ليعم كل أقوالهم المؤذية للرسول ﷺ والمؤمنين))[3] ولولا استخدام هذا الضمير لما نتج هذا المعنى ثم الانتقال الى التكلم (أنّا) تهديدا بمظهر العظمة لهم[4]. ولقد هان أمرهم بهذا وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله[5] . وبذا فان جوهر التوظيف الانتقالي في مجملة ، جاء لتعزيز وحدة النص من خلال تنوع الوحدات اللسانية واختلاف المرجعيات.

ثانيا : التبادل الالتفاتي :

قبل الولوج في هذا النوع من التبادلات الضمائرية ، لابد من التعريف بالالتفات فالالتفات عرف قديما بأنه (التعبير عن معنى بطريقة من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه

([1]) سورة يس ،الاية :٧٦ .

([2]) ينظر: التفسير الكبير ، الرازي : ١٠٧/٢٦ ، الجامع لاحكام القرآن : ٧٥/١٥ ، الكشاف:٢٩/٤.

([3]) ينظر: التحرير و التنوير : ٧٢/٢٣ .

([4]) ينظر: نظم الدرر:١٧٦/١٦ .

([5]) في ضلال القرآن: ٣٧/٧ .

بطريق اخر منها) [١] وهذه الطرق الثلاثة هي ليست الا : الغيبة والخطاب والتكلم ولذلك قيل ان الالتفات هو(العدول عن الغيبة الى الخطاب اوالتكلم او على العكس)[٢] وقد تابع بعض المعاصرين القدماء في تعريفهم الالتفات [٣] . وبما ان الاسلوبية تقوم في أساسها على فكرة العدول من اسلوب الى اسلوب آخر ، بقصد ايقاظ ذهن المتلقي عن طريق الاتيان بغير المتوقع ، فهذا يتطابق مع السياق الاسلوبي عند ريفاتير الذي هو (نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع ، والتناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه الأسلوبي)[٤] .ان اغلب الدراسات البلاغية دارت حول هذا النوع من الالتفات ، أي إيراد اكثر من ضمير مع بقاء المرجعية ثابتة لا تتغير ، لكن الالتفات اصبح مفهومه اشمل و أوسع ، حيث يضم تقنيات و آليات متعددة والتي ستتجلى من خلال البحث . و اول ما يتجلى في سورة يس من أمثلة التبادل الالتفاتي. ما نجده في قصة اصحاب القرية و المرسلين ، في قوله تعالى على لسان الرجل الذي جاء ناصحا لقومه وداعيا اياهم الى الأيمان بما جاء به هؤلاء الرسل: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [٥] والتبادل الالتفاتي الذي يطالعنا هو ضمن آلية المرجع الواحد ، فان ((الأصل: (واليه ارجع) فالتفت من التكلم الى الخطاب وفائدته انه اخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه تلطفا و اعلاما انه يريد لهم

---

(١) الايضاح في علوم البلاغة ، القزويني : ٧١/١ ، ينظر : الطراز ، العلوي : ١٣١/٢ .

(٢) التعريفات ، الجرجاني : ٢٦.

(٣) مجدي وهبة و كامل المهندس ، في معجم المصطلحات ، العربية في اللغة والأدب : ٥٨ . هذا التعريف بالقول : ان الالتفات هو الانتقال الفجائي اثناء الكلام .. من التكلم او الخطاب او الغيبة الى آخر في التعبير .

(٤) معايير تحليل الاسلوب : ٥٦.

(٥) سورة يس ، الايتان:٢٢-٢٣.

في معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه تلطفا و اعلاما انه يريد لهم ما يريد لنفسه))[1] وهناك معنى آخر ينطوي عليه ذلك الالتفات وهذا المعنى هو ((التعريض بقومه ... فهو يعرض بقومه وبما يعبدون من دون الله))[2] وكأنه قال (ومالكم لا تعبدون الذي فطركم) ،لكن أضافه الى نفسه بضمير التكلم من باب التلطف و الخطاب ثم التفت في قوله (واليه ترجعون)اذ جعل الاسناد تقوية لمعنى التعرض ، وانما ابتدأه بإسناد الخبر الى نفسه لابرازه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويدارئهم فيسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم ويكون اعون على قبولهم إياه حيث يرون انه لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه [3] . ثم انتقل الى التكلم المسبوق بممهد اسلوبي وهذا الممهد هو همزة الاستفهام ، والاستفهام يتطلب الجواب غير ان هذا الاستفهام خرج الى معنى مجازي أفاد الانكار فأحدث هذا الالتفات نوعا من التضاد في الأفكار والمواقف ، وخاصة ان الرجل حين خاطب قومه أبان عجز ما عبدوه بتعدده (آلهة) مسبوقا بصيغة الافتعال فالاتخاذ يشعر بانه صنع وذلك من تمام التعريض بالمخاطبين انهم جعلوا الأوثان آلهة وليست بآلهة لان الإله الحق لا يجعل جعلا ولكنه مستحق الأهلية بالذات [4] . وبذا يكون التبادل الالتفاتي في هذا السياق قد ادى دورا اسلوبيا كبيرا بالانتقال المفاجئ وكسر النسق بالإضافة الى التكثيف الدلالي. ومن امثلة التبادل الالتفاتي ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [5] . والتبادل

([1]) البرهان في علوم القرآن:٣/٣٦٣

([2]) ينظر:البنى و الدلالات في لغة القصص القرآني : ٢٦٩.

([3]) ينظر : التحرير و التنوير : ٢٢/٣٦٨ ، تفسير سورة يس ،محمد بن صالح العثميين:٦٩.

([4]) ينظر التحرير و التنوير:٢٢/٣٦٨، نظم الدرر:١٦/١١١.

([5]) سورة يس،الاية : ٤٧.

الالتفاتي الحاصل في الاية اعتمد آلية انتقال مرجعية الكلام وتغير النسق من التكلم في الضمير (نحن) في(انطعم) الى الخطاب بالضمير (انتم) ومرجعية الضميرين واحدة ، فالتكلم على لسان المشركين اذ كانوا مع ما هم عليه من الكرم يشحون على فقراء المسلمين تشفيا منهم فاذا سمعوا من القرآن ما فيه الامر بالأنفاق او سالهم فقراء المسلمين.. يتعللون لمنعهم بالاستهزاء فيقولون : لا نطعم من لو يشاء الله أطعمه .. فالاستفهام في (انطعم) انكاري[1] ، ثم ياتي الالتفات الى صيغة الخطاب (ان انتم الا في ضلال مبين) فهو من قول الله عز وجل للكفار حين ناظروا المؤمنين و ردوا عليهم بهذا الجواب [2] ، وبذلك انتقل الكلام من صيغة التكلم الى صيغت الخطاب بالضمير (انتم) المحيل الى الكفار ، عن طريق الالتفات من اسلوب الى آخر ، مما ادى الى كسر النسق ومفاجأة المتلقي بعنصر غير متوقع ، اذ ان المتوقع أن يكون (ان انتم الا في ضلال مبين) هو من قول الكفار لما يدل عليه السياق ، لعدم وجود الممهد الأسلوبي كالأفعال (قال،وقلنا) الذي يهيئ الفرصة لمثل هذا الانتقال. ونجد تحقق هذه الالية من الالتفات أيضا في قوله تعالى :﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [3]

فالآية بدأت بضمير الغيبة المحيل الى الكفار ثم الانتقال الى التكلم المتجسد (بالحوار الداخلي) الذي يبرز من خلاله عجز الشخصية عن مواجهة الواقع فتعمد الى حوار نفسها[4] عن طريق التجريد وقد عرف القدماء التجريد بأنه (إخلاص الخطاب لغيرك ، وأنت تريد به نفسك)[5] فالنداء في الاية نداء مجازي وليس حقيقيا في (يا ويلنا) فهي

([1]) ينظر: التحرير و التنوير : ٣١،٣٢/٢٣.

([2]) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٥٧٤/٣،الجامع لاحكام القرآن :٣٧/١٥،ارشاد العقل السليم:٢٥٦/٤.

([3]) سورة يس، الاية :٥٢ .

([4]) ينظر سورة الكهف دراسة اسلوبية : ١١٥ – ١١٦ .

([5]) المثل السائر ، ابن الاثير :٤٢٣/١.

كلمة يقولها الواقع في مصيبة او المتحسر[١] . أي ليس بحضرتنا اليوم شيء ينادمنا الا الويل [٢] . فالاية تصور حالة الكفار في هذا الموقف المتمثل بالحسرة والندم و الخوف مما سيحل بهم من العذاب ، وإضافة الويل إلى ضمير التكلم (نا) يكشف عن البعد النفسي المتجسد بالحوار الداخلي ، يضاف الى ذلك استخدام اسم الاستفهام (من) في هذا الحوار والذي خرج الى معنى مجازي هو التعجب ومن ثم تشبيه الموت بالرقاد أي النوم وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم الا انه بالنسبة الى ما بعده كالرقاد [٣]. لشدة ما سيلقونه من الاهوال والعذاب . وبعد هذا الحوار ينقل الكلام ليأتي جواب الملائكة [٤] من هؤلاء بالقول: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وقد عدل بهذا الجواب عن سنن سؤالهم تذكيرا لهم بكفرهم و تقريعا لهم عليه ، فهم سألوا عن الباعث وجاء الجواب للاهتمام بالبعث نفسه الذي وعدهم الله به وكانوا ينكرونه ويكذبون الرسل[٥] . فالالتفات تحقق بانتقال صيغة الكلام من حوار داخلي على لسان الكفار الى جواب لهم من قبل الملائكة ، وجاء هذا الانتقال مفاجئا ليكسر النسق ولكن ثمة تقنية استخدمت كممهد اسلوبي وهي علامة الوقف (س) التي تعني سكتة لطيفة قصيرة ، على القارئ ان يقف عندها فوق كلمة (مرقدنا) ولبيان ان (هذا) ليس من قول الكفار[٦]. فتحقق التبادل الالتفاتي عن طريق تغير مرجعية الكلام ، ومن الأمثلة الأخرى للتبادل الالتفاتي والذي يتجه فيه الالتفات اتجاهين الاول الالتفات مع آلية المرجع الواحد و الثاني التفات عن

---

(١) التحرير و التنوير :٣٧/٢٣.

(٢) نظم الدرر:١٤٣/١٦،١٤٢.

(٣) ينظم : تفسير القرآن العظيم : ٥٧٤/٣،التحرير و التنوير :٣٧/٢٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ٥٧٤/٣، تنوير الاذهان من تفسير روح البيان ، اسماعيل حقي البروسوي :٣١٨/٣.

(٥) ينظر : ارشاد العقل السليم :٢٥٦/٤.

(٦) ينظر البرهان في علوم القرآن :٤٤١/١.

طريق الحوار الداخلي . ما نجده في قوله تعالى:﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ، ، وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [1]فالتبادل الالتفاتي كما ياتي:اذ بدا بضمير التكلم (اني) ثم انتقل الى صيغة الخطاب (ادخل) المسبوق بممهد اسلوبي هو الفعل الماضي المبني للمجهول و حذف ضمير المقول له مجرورا باللام (له) لان القول المذكور هنا قول تكويني لا يقصد منه المخاطب به بل يقصد حكاية حصوله [2] . والسرعة المتناهية في امره تعالى اذا اراد امرا . ومن ثم ياتي الممهد الاسلوبي بضمير الغيبة في (قال) وان السامع يترقب ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة [3] ، ثم ينقل السياق الى حوار داخلي لان استخدام النداء في (يا ليت) ليس حقيقيا بل لغرض مجازي هو التمني و استعمال (ليت) أفاد امتناع حصول ما يتمنى[4]. فانزال ليت منزل العاقل بالنداء يكشف عن البعد النفسي لهذا الرجل حين دخل الجنة ولم يلهه دخوله الجنة عن حال قومه ، فتمنى ان يعلموا ماذا لقي من ربه من إكرام ودرجة عالية في الجنات [5]. واضافة قوم الى ضمير المتكلم دليل على حرصه على أيمانهم رغم إيذائهم له فهو لم يكن يتمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم ، فكان متسما بكظم الغيظ وبالحلم على أهل الجهل[6]. ثم يتردد ضمير التكلم في السياق المحيل الى هذا الرجل حتى ينكسر بورود ضمير التكلم (نا) المحيل الى الله تعالى ليمهد الانتقال الى ضمير الغيبة العائد للرجل في (قومه،بعده) رجوعا الى قصة أصحاب القرية بعد انقطع الحديث عنهم بذكر الرجل المؤمن .. وإضافة (بعد) الى

(1)سورة يس، الآيات :٢٥-٢٨.

(2) ينظر: التحرير والتنوير :٢٢/٣٧٠.

(3) المصدر نفسه . ٢٢ / ٣٧١ .

(4) ينظر: تفسير سورة يس ، محمد صالح العثميين:٨٤.

(5) ينظر :التحرير والتنوير :٢٢/٣٧١.

(6) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري:٢٢/١٩٣.

أصحاب القرية بعد انقطع الحديث عنهم بذكر الرجل المؤمن .. وإضافة (بعد) الى ضمير الرجل على تقدير مضاف محذوف أي بعد موته [1].ومن أمثلة التبادل الالتفاتي ما نجده متداخلا ومتشابكا مع التبادل الانتقالي في قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ، لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ، سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ، وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [2]وقد مر بنا الحديث عن التبادل الانتقالي الحاصل في هذه الآيات بين ضمائر (الخطاب،والغيبة،و التكلم) المحيلة الى مرجعيات مختلفة . أما الالتفات الحاصل ، فهو ضمن آلية المرجع الواحد فالتكلم بالضمير (نا) و الذي تردد في بداية السياق يحيل الى الله سبحانه وتعالى ثم حصلت النقلة على صعيد الضمير (الوحدة اللسانية) من ضمير التكلم الى ضمير الغيبة الهاء في (ثمره) الا ان مرجعية هذا الضمير الى الله سبحانه وتعالى ((وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا، وفجرنا: فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات)) [3] ومن ثم تم الانتقال الى ضمير غيبة آخر في السياق يحيل الى الله سبحانه وتعالى في الفعل (خلق) المسبوق بتنزيه نزه الله تعالى به نفسه عن قول الكفار بقوله (سبحان..) وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها ، وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق الوجود .. حقيقة وحدة الخلق ... فقد خلق الله تعالى الأحياء أزواجا ... بل ربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد [4]. ثم بعد هذا الانتقال يعود سياق التكلم

([1]) التحرير و التنوير : ٣٧٢/٢٢.

([2]) سورة يس الايات : ٣٧/٣٣.

([3]) الكشاف:١٥/٤،وينظر:ارشاد العقل السليم :٢٥٣/٤، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن احمد النسفي : ٧/٤.

([4]) في ظلال القران .

ويبرز من خلال الضمير في (نسلخ) الذي يحيل أيضا الى الله سبحانه وتعالى ، فالتبادل الضمائري في السياق متشابك ومتداخل بين الانتقال تارة والالتفات تارة أخرى ، ويمكن توضيح ذلك بالخطاطة آلاتية:

تبادل انتقالي (احالة الى اكثر من مرجع و تغير الضمائر)

غيبة – تكلم – غيبة – تكلم –غيبة –تكلم –غيبة –تكلم –غيبة.

تبادل التفاتي : (تغير الضمير والمرجع واحد)

ومما زاد فاعلية اسلوبية الانتقال في هذا السياق نقل الكلام من (المكان الكلي الى الزمان الكلي الجامعين للجواهر والأعراض)[1] لايقاض ذهن (المتلقي) و دعوته الى التأمل ولاسيما ان الهدف هو الرد على هؤلاء المنكرين و التصدي لهم بهذه الحجج الدامغة والبراهين الساطعة المتمثلة بهذه الآيات المشاهدة والمحسوسة من قِبَل هؤلاء. وبذا يكون التبادل الالتفاتي قد أدى دوراً فاعلا في البناء التركيبي للسورة بما أحدثه من نقلات ، تاتي مرة معتمدة آلية المرجع الواحد . مع تغير الضمائر وتناوبها بين (الغيبة والخطاب والتكلم) كما اعتمد تقنية الحوار الداخلي الناتج عن التجريد . فضلا عن تغير مرجعية الكلام ، والعدول من اسلوب الى آخر. وكانت هذه التبادلات تارة مسبوقة بممهد اسلوبي ، واخرى مفاجئة لتكسر النسق و تحدث خلخلة في افق توقع القارئ ولكل منها مسوغه الأسلوبي.

([1])نظم الدرر.